الجزء الرابع التفسير التفصيلي

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ) [الحاقة : ٣٠]

{ خذوه } : أي يقال للزبانية ،(ملائكة العذاب وخزنة وحراس جهنم)
،{ خذوه فغلوه } يعني شدوه بالأغلال وغلوا يديه إلى عنقه

والغل : القيد الذي يجمع بين اليدين والعنق

كقوله في موضع آخر :

{ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم } [الدخان : ٤٧]

وهو السوق إلى الحتف وكقوله في موضع آخر :

{ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا } [مريم : ٨٦]

فكأنهم ، والله أعلم مغلون بدء الأمر بالأغلال

لأن الناس في الدنيا يجتهدون كل الجهد في دفع العذاب بأيديهم .
فأخبر أن أيديهم تغل في الآخرة ،

فلا يتهيأ لهم دفع ما يحل من العذاب ، فيكون ذلك أشد عليهم ،
ويكون حالهم كما قال الله تعالى :

{ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة } [الزمر ٢٤]

فتغل يداه كي لا يتقي النار عن وجهه

ثم يدخلون في السلاسل ، فيجرّون ويسحبون ،
ويساقون ، على وجوههم على اختلاف أحوال القيامة .
والمسؤولون عن القيام بذلك هم الزبانية (خزنة جهنم)
عدتهم تسعة عشر ، قيل تسعة عشر ملكا
وقيل تسعة عشر صفا
وقيل تسعة عشر صنفا ، حكى الثلاثة الرازي .

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) [الحاقة : ٣١]
فالجحيم هي النار الغليظة لان النار قد تكون ضعيفة كنار السراج ونار القدح ، وقد تكون قوية كنار الحريق
فلا يقال لنار السراج : جحيم ،
والجحيم اسم علم على نار جهنم التي أعدها الله للكفار والعصاة ، والتصلية إلزام النار واصله لزوم الامر
أي لا تُصلُّوه إلا الجحيمَ وهي النارُ العظيمةُ
ليكونَ الجزاءُ على وفقِ المعصيةِ
حيثُ كانَ يتعاظمُ على الناسِ

ومعنى { صَلُّوهُ } بالغوا فى تصليته النار ،

بغمسه فيها مرة بعد أخرى . يقال : صَلِى فلان النار ،

إذا ذاق حرها

وبالتالي : بالغوا في تصليته كالشاة المصلية .

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) [الحاقة : ٣٢]

سلكه في السلسلة : أن تلوى على جسده حتى تلتف عليه أثناؤها ؛ وهو فيما بينها مرهق مضيق عليه لا يقدر على حركة ؛ وجعلها سبعين ذراعاً إرادة الوصف بالطول . كما قال : { إن تستغفر لهم سبعين مرة } [التوبة : ٨٠] ، يريد : مرات كثيرة ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد .

والمعنى في تقديم السلسلة على السلك :

مثله في تقديم الجحيم على التصلية .

أي : لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ،

كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق في الجحيم .

ومعنى { ثُمَّ } الدلالة على

تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم ،

وما بينها وبين السلك في السلسلة ،

لا على تراخي المدة

(إنه) تعليل على طريق الاستئناف ، وهو أبلغ ؛

كأنه قيل : ما له يعذب هذا العذاب الشديد ؟

فأجيب بذلك { فاسلكوه }

{ فَاسْلُكُوهُ } من السَّلك بمعنى الإدخال فى الشئ ، كما فى قوله - تعالى - { مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ } أى : ما أدخلكم فيها

أى : خذوا هذا الكافر ، فقيدوه ثم أعدوه للنار المحرقة .

ثم اجعلوه مغلولا فى سلسلة طولها سبعين ذرعا ،

بحيث تكون محيطة به إحاطة تامة .

أى ألقوا به فى الجحيم وهو مكبل فى أغلاله .

و { ثم } فى كل آية جئ بها للتراخى الرتبى ، لأن كل عقوبة أشد من سابقتها . إذ إدخاله فى السلسلة الطويلة .

أعظم من مطلق إلقائه فى الجحيم كما أن إلقاءه فى الجحيم ، أشد من مطلق أخذه وتقييده .

(إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ) [الحاقة : ٣٣]

{ إنه } الضمير راجع للكافر { كان } في حياته الدنيا

{ لا يؤمن } لا يصدق { بالله العظيم } وما جاء من عنده ففيه بيان السبب الذي لأجله استوجبوا هذا العقاب ،

وهم أنهم كانوا لا يؤمنون بالله العظيم .

أي افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله في الدنيا وإشراكه به سواه ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه: { لا يؤمن بالله } جائز أن يكون لا يؤمن بوحدانيته ، أو لا يؤمن بإرسال الرسل ،

أو كان لا يؤمن بالبعث . وإلا فهم لا يؤمنون بالله ،

ولكن من لم يكن مؤمنا بالرسل والبعث فهو غير مؤمن في الحقيقة ، لأن الإله الحق هو الذي أرسل الرسل ،

ويقدر على البعث ، والكافر لا يثبت له قدرة البعث ،

ولا يراه أرسل الرسل ،

فصار لا يؤمن بالله العظيم في الحقيقة .

فقد استكبر وتمرّد ورفض الخضوع لكل الدلائل الواضحة والبيّنات الظاهرة على وجود الله سبحانه ،

لا من موقع الفكر المضادّ ، ولكن من موقع العناد الذي يتحرك على أساس منطق اللاّمبالاة بمسألة العقيدة التي لا يريد أن يشغل فكره بها ، لأنه لا يريد أن يخرج من جوّه الكافر المتخلّف ، فقد قامت عليه الحجة القاطعة التي تبرّر عذابه في نار جهنّم

(وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) [الحاقة : ٣٤]

والحض على الشيء : أن يَطْلُبَ من أحد فعلَ شيء ويُلِحّ في ذلك الطلب

ويجوز أن يكون قوله :

{ ولا يحض على طعام المسكين }

إثبات السخرية من الذي ترك [حض أهله على الإطعام] كقوله :

{ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه }[يس ٤٧]

يقول : كيف نطعمه ، ومن بيده خزائن السماوات والأرض ، لا يطعمه ؟

فلو كان أهلا للإطعام لكان الأولى بأن يطعمه الله تعالى

والمعنى لهذا الكلام :

أنه كان من كلام الكفار أن من يدخل الإسلام من فقراء مكة لانعطيه طعام ونتركه لله يطعمه

لذلك في الآخرة يُظهر الله استكبار ذلك الكافر والعند ضد اطعام المساكين

فاليوم يلاقي هذا المستكبر

جزاء عدم إيمانه وكذلك

جزاء أذيته للمساكين بعدم إطعامهم

قوله تعالى :

{ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ } .

فيه عطف عدم الحض على طعام المسكين ،

على عدم الإيمان بالله العظيم ،

مما يشير إلى أن الكافر يعذب على الفروع .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث هذه المسألة في أول سورة فصلت عند قوله تعالى :

{ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزكاة } [فصلت : ٦]

، كما أن الإيمان يزيد بالطاعة ، والمؤمن يثاب على إيمانه وعلى طاعته ، فكذلك الكفر يزداد بالمعاصي .

ويجازى الكافر على كفره وعلى عصيانه ،

كما في قوله تعالى :

{ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ }

[النحل : ٨٨] .

فعذاب على الكفر وعذاب على الإفساد ،

ومما يدل لزيادة الكفر ، قوله تعالى :

{ إِنّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ } [آل عمران : ٩٠]

ونتذكر ماحدث لرسول الله والصحابه

بعدما وقع كفار قريش صحيفة المقاطعه

لمدة ٣ سنوات عانى فيها المسلمون من الجوع

ازداد الوضع سوءاً على المسلمين وبني هاشم،

فقرّروا الانحياز إلى شِعب أبي طالب والمكوث فيه،
واستمرّ حصارهم في هذا المكان ثلاث سنوات

حتى عام الحزن، وقد انقطعت عنهم كلّ سبل الحياة،

حتّى أكلوا أوراق الشّجر والجلود من الجوع

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ) [الحاقة : ٣٥]

الحميم : القريب . وتفسير مجاهد : الحميم : الشفيق .

أي:فليس له اليوم ها هنا قريب ينفعه أو أحد يشفق عليه

وهو كقوله تعالى :

{ ولا يسأل حميم حميما }

وكقوله : { ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع } .

وقوله :

{ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون } [المؤمنون : ١٠١]

(وَلا طَعَامٌ إِلا مِنْ غِسْلِينٍ) [الحاقة : ٣٦]

كقوله تعالى في موضع آخر :

{ ليس لهم طعام إلا من ضريع } [الغاشية : ٦]

وقوله تعالى في موضع آخر :

{ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون }

{ لآكلون من شجر من زقوم }[الواقعة : ٥١و ٥٢]

والزقوم غير الضريع .
فهذا ، والله أعلم ،
أن في جهنم دركات ، فأهل دركة منها ،
لا يجدون غير الغسلين ، وأهل دركة منها ،
طعامهم الزقوم ، ليس لهم غيره ،

ثم يجوز أن يكون قدر كل أهل دركة ما توجبه الحكمة
أن يكون طعامهم .
فعلى ما كانوا يفتخرون في هذه الدنيا بالأطعمة
على من دونهم ، ويهينون من لم يكن عنده ذلك الطعام ،
جعل الله تعالى لهم من ذلك الوجه
طعاما في الجحيم ، يهانون به .
وقوله تعالى : { إلا من غسلين } جائز أن يكون هذا
اسما لشيء من الأشياء التي يعذب بها أهل النار ،
لم يطلع الله تعالى الخلق على علم ذلك ومعرفته ،
وقد ذكر أسامي في الآخرة ، ليس للخلق بمعرفتها عهد .
ألا ترى أن الزقوم ليس باسم لشيء يستقبح ، ويستفظع
في الدنيا ، ثم جعله الله تعالى اسما لشيء المستبشع الكريه

في الآخرة ، وقال { عينا فيها تسمى سلسبيلا } [الإنسان : ١٨] والسلسبيل غير معروف في ما بين أهل اللسان ؟ . وقال بعضهم : الغسلين ما يسيل من جلود أهل النار إذا عذبوا ، وذلك هوالصديد والقيح .

(لا يَأْكُلُهُ إِلا الْخَاطِئُونَ) [الحاقة : ٣٧]

لا يأكل الطعام الذي من غسلين إلا الخاطئون ،

وقال ابن عباس : يعني المشركين

وعن الحسن أنه قال : إن المؤمن قوّام نفسه لله تعالى ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم ،

حاسبوا أنفسهم في الدنيا ،

وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم

أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة

إن المؤمنين قوم أوثقهم العذاب ، وحال بينهم وبين هلكتهم

أن المؤمن أسير في الدنيا ، يسعى في فكاك نفسه من عذاب الآخرة ،

لا يأمن شيئا حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره وجوارحه كلها ،

فمحاسبة النفس أن ينظر فى كل فعل يريد أن يقدم عليه إلى عاقبته .
فإن كان رشدا أمضاه ، وأنفذه ، وإن كان غيا انتهى عنه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ، فإن كان رشدا فامضه وإن كان غيا فانته عنه "

والخاطئ : الذي يفعل ضد الصواب متعمداً

والمخطئ :الذي يفعله غير متعمد

ولنسترجع كيف أظهر الله فى الآيات بشكل مجمل عذاب أهل النار وأفعالهم :

وبما احتوت من وصف لحالة يوم القيامة :
فحينما يحين الحين وينفخ في الصور وتحمل الأرض

والجبال فتندك وتنهار وتشقق السماء وتتداعى تكون الواقعة قد وقعت والقيامة قد قامت . وإذ ذاك يحدق الملائكة بجميع الأرجاء والجوانب ، ويتجلى الله على عرشه المحمول من قبل ثمانية من ملائكته فوق الكون والخلق ، ويعرض الناس عليه دون أن تخفى منهم خافية ، ويكون قضاء الله فيهم ، حيث يكونون فريقين :

فريقا يعطي كتابه بيمينه فيبتهج ويسر بما كان عليه من يقين بالله ولقائه وحسابه ويدخل الجنة ليتمتع فيها بالعيشة الراضية والقطوف الدانية ،

ويقال له : كل واشرب هنيئا

فهذا جزاء ما قدمت من صالح العمل في الدنيا .

وفريقا يعطى كتابه بشماله فيعتريه الرعب ويستشعر بالندم والحسرة ويتمنى لو لم يبعث ولم يحاسب ،

ويعول قائلا إن ماله لم يغن عنه شيئا ، وسلطانه أو حجته أو قدرته على أن يؤمن بالله أصبحت غير موجودة

قد غابت عنه ويؤمر الموكلون بالعذاب بأخذه وغل يده وطرحه في جهنم وربطه بسلسلة طولها سبعون ذراعا ؛ لأنه لم يؤمن بالله العظيم ، ولم يكن يحض على طعام المسكين ، ولن يجد له حينئذ صديقا حميما ولا ناصرا معينا ، ولن يكون له طعام إلا الصديد المعد للآثمين أمثاله .

والصلة بين هذه الآيات وسابقاتها قائمة في هدف التذكير والإنذار . فكما أهلك الله المكذبين الكافرين الأولين بأنواع البلاء في الدنيا فقد أعد لهم أنواع العذاب في الآخرة . وشأن كفار العرب شأن الكفار السابقين ومصيرهم هو نفس المصير .

ولعله جاءت الآيات في هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد العنيفة

كي تؤثر فيها وتهزها وتستحييها .

ومثل هذه البيئة يتكرر وجودها فى الجاهليات الموجودة فى العصور التالية التى تمر بها البشرية ،

بالرغم من أنه يوجد في نفس الوقت أرق البيئات وأشدها تأثرا واستجابة .

لأن رقعة الأرض واسعة .

وتوزيع المستويات والنفسيات فيها مختلف

والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ،

وبما تستجيب له حين يدعوها .

والأرض تحتوي اليوم في بعض نواحيها قلوبا أقسى ، ، وجبلات لا يؤثر فيها

إلا كلمات من نار وشواظ

كهذه الكلمات ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة . .

وقد ذكر مصير المؤمنين الصالحين في سياق ذكر مصير الكفار للمقابلة والتنويه جريا على الأسلوب القرآني

وقد جاء وصف مصير المؤمنين أخاذا من شأنه أن يبعث الطمأنينة والاستبشار والرغبة في العمل الصالح في المؤمنين

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) [الحاقة : ٣٨]

المقسم عليه إذا كان منتفياً (أي :هناك من نفاه)

جاز الإتيان بـ(لا) قبل (القسم) لتأكيد (النفي)

فمثلا :الكفار ينفون البعث (لأنهم لايبصرونه)

فيقسم الله بالبعث الذي نفوه

فلا أقسم بما تبصرون وبما (لاتبصرون)

يعني الله عز وجل يقول /

أقسم بما تبصرونه وبما لاتبصرونه

للتوضيح التفصيلي : لا أقسم بيوم القيامه

وكذلك نفي الإيمان بيوم القيامه

فتأتي لا النافيه قبل القسم (لا أقسم بيوم القيامه)

المقسم عليه إذا كان منتفياً:

إذا أقسمتَ لإثباته وتأكيده وتقريره

تقول: لا لما تقولون،

لا لدعاواكم الباطلة في التكذيب بيوم القيامة،

لا لما تقولون، لا لما تدعون وتفترون،

ثم قال :أُقْسِمُ بِيَوْمِ،

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ،

فصار هناك فصل بين "لا" وبين فعل القسم الذى هو أقسم، فـ"لا" تتعلق بشىء قبلها، وهو تكذيب المكذبين، لما كذبوا -وقع التكذيب منهم- قال:

"لا" لفِراكم وتكذيبكم أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

، وعلى هذا تكون "لا" نافيه لقولهم الكاذب

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) ٣٨(وَمَا لا تُبْصِرُونَ) ٣٩

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ٤٠

الآيتان ٣٨ و ٣٩ وقوله تعالى :

{ فلا أقسم بما تبصرون } { وما لا يبصرون }

قد وصفنا أن تأويل قوله :

{ فلا أقسم بما تبصرون } من خلق السماوات والأرض وأنفسكم من الأسماع والأبصار والقلوب والعقول ، أو ما تبصرون من الخلائق ممن حضركم

{ وما لا تبصرون } من الخلائق إن غاب عنكم .

فيكون القسم بما نبصر وما لا نبصر قسما بالخلائق أجمع ، لأن جملة الخلائق على هذين الوجهين : فصنف يرى ، وصنف لا يرى . وقد ذكرنا أن

أي أن الله عز وجل يقسم بـ

جميع المكونات والموجودات ،

وقيل : الدنيا والآخرة

وقيل : ما في ظهر السماء والأرض وما في بطنها .

وقيل : الأجسام والأرواح .

وقيل : النعم الظاهرة والباطنة .

وقيل : ما تُبصرون : الإنس

وما لا تبصرون : الجن والملائكة .

(فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) ٣٨(وَمَا لا تُبْصِرُونَ) ٣٩

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ٤٠

أي :أقسم بما يبصرونه من أن محمد الذي ترونه أمامكم وتبصرونه هو رسول الله

وأقسم بمالا يبصرونه هو نزول الوحي بالقرآن عليه

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) جواب القسم

و(لا) النافيه : تعني لا لكذبكم عنه أنه شاعر وأنه كاهن

ولكن القرآن أنزله رب العالمين

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ) [الحاقة : ٤١]

(وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ) [الحاقة : ٤٢]

(تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الحاقة : ٤٣]

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) ٤٠

اعلم أن نظير هذه الآية قوله في الشعراء :

{ إنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين } فهو كلام رب العالمين لأنه تنزيله ، وهو قول جبريل لأنه نزل به ،

وهو قول محمد لأنه أنذر الخلق به ،

فهاهنا أيضا لما قال فيما تقدم :

{ إنه لقول رسول كريم } أتبعه بقوله :

{ تنزيل من رب العالمين } حتى يزول الإشكال

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ) [الحاقة : ٤٤]

{ ولو تقول علينا } محمد شيئا منه

ومعنى التقول :ينسب إلى أحد ما لم يقل

{ بعض الأقاويل } آية فزاد في الوحي أو نقص منه (يعني من تلقاء نفسه ما لم نقل)

و: «قول »: جمعها «أقوال »

و: «أقوال » جمعُها «الأقاويل »

إذن : الأقاويل جمع الجمع ،

قال الزمخشري : وسمى الأقوال المنقولة أقاويل

تصغيراً لها وتحقيراً ، كقولك : الأعاجيب والأضاحيك

ثم أخبر تعالى أن محمداً لو تقول على الله شيئاً لعاقبه بما ذكر ،

وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه . يجيء لتقرير الإحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول [صلى الله عليه وسلم] وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديدا . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ :

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) . .

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدا [صلى الله عليه وسلم] صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ) [الحاقة : ٤٥]

والأخذ على يديه : منعه بالقوة عن عمل شيء

لأخذناه بقوة ، أي دون إمهال فالباء للسببية

واليمين القوة ، وسميت اليمين يمينا لأن قدرة الرجل تكون فيها ، وسمي ملك الرقاب ملك اليمين لأن ملك اليمين يكتسب بالقهر والغلبة ، وإنما يصل المرء إلى القهر والغلبة بالقوة ، فسمي ملك يمين لهذا ، لا أن يراد بذكر اليمين تحقيق اليمين ، إذ اليد لا تملك شيئا حتى يضاف إليها ، فكذلك في ما أضيف من اليمين إلى الله تعالى ، فالمراد منه القوة .

وقال القتيبي: إنما قام اليمين مقام القوة، لأن قوة كل شيء في يمينه. ولأهل اللغة في هذا مذاهب أخر، وهو قولهم

إذا أرادوا عقوبة أحد ، فيقولون :

خذ بيده ، وافعل به كذا وكذا .

وهذا كقوله : ذي السلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من بين يديه ، واهانته لبعض أعوانه ، خذ بيده فاقمه ، واعتمد ابن جرير هذا التأويل .

قال الله تعالى : لو كذب علينا لأمرنا بالأخذ بيده ثم عاقبناه

(ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) [الحاقة : ٤٦]

الوتين :نياط القلب وهو العرق الذي يتعلق القلب به ، إذا انقطع مات صاحبه ، فنقطع ذلك السبب بمخالفته إيانا

هذا المشهد يلقي ظلالا بعيدة وراء المعنى التقريري حيث وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان .

ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب

(فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) [الحاقة : ٤٧]

ولو أخذته لم يقدر أحد منكم على دفعنا عنه

(وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) [الحاقة : ٤٨]

والتذكرة : اسم مصدر التذكير وهو (التنبيه إلى مغفول عنه) .

والمتقين هم الموحدين المؤمنون فإنهم المتصفون بتقوى الله لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين ، فسماهم مرة متقين ومرة صابرين ومرة شاكرين كقوله عز وجل

{ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور } [إبراهيم : ٥]

وهو تذكرة لأنه يذكرهم الوعد والوعيد وما يتقى وما يؤتى وكلما نزل منه شيء أو تلوا منه شيئاً ذكرهم بما علموا لئلا تعتريهم غفلة أو نسيان فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل. فهو تذكرة ،

بعباداتهم وأمور دينهم وأسباب الفلاح ليبقوا على تذكرة بها فيسعدوا بالجزاء

(وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ) [الحاقة : ٤٨]

وأخيرا تجيء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية :

(وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه

لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين) .
فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر .

إن الحقيقة التي جاء بها كامنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتتذكرها . فأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تتفتح ولا تتذكر ، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئا . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون .

فكتاب الله يثير في نفوس الكافرين ، وهم أحياء في الدنيا ، مشاعر الأسى والحسرة على ما هم غارقون فيه من الأوحال ، كما يكون عليهم حسرة في الآخرة ، بما ينالهم من عذاب الله

(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) [الحاقة : ٤٩]

{ وإنا } أي : بمالنا من العظمة

{ لنعلم } أي : علماً عظيماً محيطاً

{ أن منكم } أي : أيها الناس { مكذبين } بالقرآن ومصدقين ، فأنزلنا الكتب وأرسلنا الرسل

لنظهر منكم إلى عالم الشهادة ما كنا نعلم في الأزل غيباً من تكذيب وتصديق فتستحقون بذلك الثواب والعقاب فلذلك وجب في الحكمة أن نعيد الخلق إلى ما كانوا عليه من أجسامهم قبل الموت لنحكم بينهم فنجازي كلاً بما يليق به إظهاراً للعدل .

(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ) [الحاقة : ٤٩]

مكذبين له بسبب حب الدنيا ، فكأنه تعالى قال : أما من اتقى حب الدنيا فهو يتذكر بهذا القرآن وينتفع .

وأما من مال إليها فإنه يكذب بهذا القرآن ولا يقربه .

يقول الرازي في تفسيره وأقول : للمعتزلة أن يتمسكوا بهذه الآية على أن الكفر ليس من الله ، وذلك لأنه وصف القرآن بأنه تذكرة للمتقين ، ولم يقل : بأنه إضلال للمكذبين ، بل ذلك الضلال نسبه إليهم ،

فقال : وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ،

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ) [الحاقة : ٥٠]

يعني : إن هذا القرآن ندامة على الكافرين يوم القيامة ،

{ وإنه لحسرة } أي سبب للحسرة { على الكافرين } حين يرون ثواب المؤمنين المتذكرين به

{ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ } : أي : القرآن ، وكذلك " إنه لحَسْرة "

والحَسرة : الندَم الشديد المتكرر على شيء فائت مرغوب فيه ، ويقال لها : التلهف ، اشتقت من الحَسْر وهو الكشف لأن سببها ينكشف لصاحبها بعد فوات إدراكه ولا يزال يعاوده ،

فالقرآن حسرة على الكافرين أى:

سبب حسرة عليهم في الدنيا والآخرة ،

فهو حسرة عليهم فى الدنيا لأنه فَضح تُرَّهَاتِهم

ونقض عماد دينهم الباطل وكشف حقارة أصنامهم ،

وهو حسرة عليهم فى الآخرة لأنهم يجدون مخالفته سبب عذابهم ، ويقفون على اليقين بأن ما كان يدعوهم إليه

هو سبب النجاح لو اتبعوه لا سيما وقد رأوا حسن عاقبة الذين صدّقوا به .

والمكذبون : هم الكافرون .

وإنما عدل عن الإتيان بضميرهم إلى الاسم الظاهر

لأن الحسرة تعم المكذبين يومئذٍ والذين سيكفرون به من بعد .

(وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) [الحاقة : ٥١]

والأصل أن الحق اسم لما يحمد عليه ،

فحقه أن تنظر في ما تستعمل هذه اللفظة

أي إن ذلك حق لا محالة أي هو جالب لحسرتهم في الدنيا والآخرة .

فتصرفها على أحد الوجوه :

فإذا استعملت في الأخبار أريد بها الصدق

نحو أن يقال : هذا خبر حق أي صدق .

وإذا استعملت في الحكم هذا حكم حق أريد بها العدل .

وإذا استعملت في الأقوال والأفعال أريد بها الإضافة .

فقوله تعالى : { وإنه لحق اليقين } أي صدق ويقين أنه من رب العالمين .

فهو صلة قوله عز وجل { تنزيل من رب العالمين } [الآية ٤٣] .

{ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } .

في هذا نفي كل باطل من شعر أو كهانة أو غيرها ،

ولكل نقص أو زيادة .

وحق اليقين هو منتهى العلم ، إذ اليقين ثلاث درجات :

الأولى : علم اليقين .
والثانية : عين اليقين .
والثالثة : حق اليقين

كما في التكاثر { كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ } [التكاثر : ٥ - ٧]

فهاتان درجتان ، والثالثة إذا دخلوها كان حق اليقين ،

ومثله في الدنيا العلم بوجود الكعبة (علم اليقين) والتوجه إليها في الصلاة ، ثم رؤيتها عين اليقين

ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين

مثال آخر : وجود مكة مثلاً ، فمَن لم يرها فقد حصل له بالإخبار علم اليقين ، ومَن رآها ، ولم يدخلها ، فقد حصل له عين اليقين ، ومَن دخلها وعرف أماكنها وأزقتها ، فقد حصل له حق اليقين ،

وكذلك شهود الحق تعالى ،

فمَن تحقق بوجوده من جهة الدليل فعنده علم اليقين ،

ومَن كشف له عن حس الكائنات ، وشاهد أسرار الذات ، لكنه لم يتمكن من دوام شهودها ، فعنده عين اليقين ،

ومَن تمكن مِن شهودها ورسخ في المعرفة ،

فعنده حق اليقين

{ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } .

وبعد هذا التقرير في إثبات الوحي والنبوة أمر تعالى رسوله بعد أن كذب برسالته المكذبون أمره أن يستعين على الصبر بذكر الله تعالى فقال له { فسبح باسم ربك العظيم } .

أنه لما نزلت الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه اجعلوها في ركوعكم فكانت سنة مؤكدة سبحان ربي العظيم ثلاثا في الركوع أو أكثر .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) [الحاقة : ٥٢]

هذا التسبيح شكرا على ما جعلك أهلا لإيحائه إليك ،

فالخالق يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسبح له تسبيح ثناء وتعظيم شكراً له على ما أنعم به عليه

من نعمة الرسالة وإنزال هذا القرآن عليه .

فسبّح باسم ربك : نزّهه عمّا لا يليق به تعالى

وتنزيه الاسم الكريم ، تنزيه للذات العليّة ،

فهو سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص ،

متصف بكل كمال ،

مستحق للحمد والذكر والشكر على أنعمه ،

وعلى إنزاله القرآن العظيم مشتملا على صنوف الهداية .

والحمد لله على هدايته لتجميع وتنسيق
وتهذيب وتأويل سورة الحاقة